٢ – نظرات في النفس والحياة

١ — ما كانت الفضائل تستطيع أن تغزو لها مكاناً في العالم كما غزت لولا إنها كثيراً ما تكون ممزوجة في أنفس أصحابها بشيء من الاعجاب بالنفس يذيع دعوتها ويعلن عن شأنها ويكافح من أجلها وأجل أصحابها — وقد يختلط الاعجاب بالنفس بالاعجاب بتلك الفضائل ، فهو وإن كان يهيء لها جنداً وأعواناً ، إلا أنه كثيراً ما ينقص من طهارتها وكمالها ونبلها ، أو قد يقضي عليها بما يدعو إليه الاعجاب بالنفس من شرور الأثرة . فإن المرء قد يرتكب الجرائم ويؤذي من خالفه لأنه يعد مخالفه أو عدوه مخالفاً وعدواً للفضيلة ومناصره مناصراً لها ، وإن قل حظه منها .

٢ — إذا أسفنا لفقدنا صديقاً عزيزاً فإننا قلما نأسف لافتقاد المتعة بعقله وأدبه بل كثيراً ما نأسف لأننا فقدنا بفقده ومرآ يدل الناس على ثقة بعض الناس بنا وحسن رأيهم في عشرتنا ورغبتهم في أن يكونوا معنا — فنعتز بالأصدقاء في أعين الناس ونزيد بهم قدراً وجاهاً . أي أن الأسف لفقد صديق أساسها الأثرة وحب النفس — ولكن هذا الأساس لا يمنع من أن تكون الفضيلة فضيلة فكثيراً ما يختلط الايثار بالأثرة في النفس حتى عُدَّ مظهراً من مظاهرها إذ أن النفس تنشد في الايثار شيئاً يرضيها ويريحها بالرغم مما تتكلفه بسببه ، وما يرضيها ويريحها منفعة لها وإن كانت مطلباً نبيلاً .

٣ — في بعض الحالات يخالف المرء منهاج حياته ونفسه كما يخالف غيره من الناس ، وذلك لتعدد نزعات النفس المتغايرة الخفية ؛ ولكن الناس كثيراً ما يحكمون على المرء أنه يسير على وتيرة واحدة وطبع لا يخالفه طبع وصفة لا تغايرها صفة ، وقلما يدركون تغيره وخلافه لنفسه إلا إذا تغيروا له وكان لهم مأرب في تغيير حكمهم عليه فإذا حدث ذلك ربما اتهموه بمخادعتهم وربما كانوا هم الذين خدعوا أنفسهم به وسواء أفطنوا إلى أنهم هم الذين خدعوا أنفسهم أم لم يفطنوا فإنهم قد يحملونه جريرة قصر نظرهم أو خداعهم لأنفسهم طوعاً فيتضاعف ذنبه لديهم . وقد يكونون معذورين في انخداعهم لأن الحياة تفرض التجانس في صفات النفس الواحدة كي يسهل فهمها ومعاشرتها . حتى أن الصفات المتناقضة قد يكون بينها شيء من التشابه والانسجام والتجانس ما دامت في النفس الواحدة .

٤ — في بعض الاحايين يفضّل المرء أن يُحْرَمَ من أن يُنْسَب إليه خير منعه عن أن تعرف الناس الأسباب الحقيقية التي دعته ان عمل ذلك الخير فيظهر من الاسباب غير ما يبطن

٥ — لعلّ أعظم النجاح في المهارة التي بها يقنع الماهر الناس إنهم لا يستطيعون ضرره من غير أن يصيبهم ضرر فيهابونه ويتجنبون أذاه ، وقد يسعون فيما ينفعه خيفة واتقاء شره — ولكن لا يستطيع كل إنسان إقناع الناس على هذه الطريقة ، بل إنها قد تكون عاقبتها وخيمة لمن لا يتقنها ومن لا يعرف أساليبها ودهاءها ومستلزماتها . لأنه إذا خاب ولم يقنعهم أو إذا رأوا أنهم يستطيعون ان يقضوا عليه وعلى وسائله بأن يبادروه بالعداء بادروه به وحاولوا القضاء عليه وقد يفلحون . فإذاً ليس من الكياسة ان يحسب المرء إظهاره العداء للناس أو تهديدهم كافياً لنيل احترامهم وهيبتهم إياه .

٦ — من العيوب ما يمتزج بفضائل بعض الناس كما تمتزج العقاقير السامة في الأدوية بمقادير لا تسمّ ، على انه لو حاول المرء وتعمد مزج فضله بعيوبه السامة قضى على فضله وفضيلته . إلاّ ان الحياة نفسها قد تخرج من الشر خيراً ، كما ان بعض الخير قد يكون من عواقبه الشر .

٧ — من الصعب ان يحب إنسان إنساناً تجرد من كل دواعي الاحترام . ومن الصعب ان يحب إنسان إنساناً بلذّة وشهوة . فالنفس تأبى في أكثر الاحايين ان تحب من تجرد من كل دواعي الاحترام ومؤهلاته . ولكن أكثرها تأبى ان تحب من تستصغر أمرها وتزدري شأنها عند استعلاء عظمته وعلو شأنه وان كانت تحترمه سراً أو علانية ولكن الحالات الشاذة قد توجد في الأمرين .

٨ — من الصعب ان تحترم النفس من لا خير له ولا شر .

٩ — كثير من الناس عدّوا من العظماء بالرغم من شرهم الكثير — وهذا يذكرنا قول هنري هين الشاعر الألماني « ان ذاكرة الانسانية قلما تذكّر بالزارع الذي سقاها ورعاها وإنما تذكّر بالحادي الذي حفر اسمه على جلدها بعديته » — نعم ان معظم العظماء الذين شكلوا حوادث التاريخ والأمم ونشروا الحضارات كان يمازجها شر كثير مسرف . وهذا مشاهد في حياة أمثال الاسكندر المقدوني ويوليوس قيصر ونابليون بونابرت . ولكن اذا كان الناس في بعض الهيئات يرفعون المجرمين الذين يمشون بالأمن الى مراتب العظماء فلا غرو ان يفعل الناس ذلك مع من سهروا الناس بنار حروبهم وأنزلوا بهم شراً كثيراً اذا كانت عاقبة ذلك نشر الحضارات والآراء .

١٠ — ان العظماء لا يمتازون عن غيرهم من الناس بمعظم فضائلهم وإنما يمتازون عنهم بمعظم ما يعملون وما يقولون — وهذه النظرة تمثّل السابقة . وليس معناها ان العظماء أقل

فضائل ، وإنما يعني أن الناس تتوقع خلوهم من النقص خلوًا تامًا بسبب ما يبهرها من آيات عظمتهم . أو أنهم يريدون توريطهم بمطالبتهم بتلك العصمة أو ان يروزهم بما يبرز نقصهم . أو ان ما يزاولون من عمل الخير يعاجره شرًا ونقصاً .

من نظرات ليوباردي

١ — المكر وهو من جهود العقل والذكاء قد يلجأ اليه الماكر كي يخفي نقص عقله وذكائه وذكاء المكر هذا كثيراً ما يلجأ اليه الناس في البيئات التي طال فساد الحكام فيها دهراً طويلاً دون تعهد العقل بالتربية والتثقيف فترى فيهم الجهل وقلة النضج الفكري والسذاجة وشيئاً من الغباء ، ومع ذلك ترى أيضاً نوعاً من ذكاء المكر تعوضهم به الحياة عما فقدوه .

٢ — في بعض البيئات التي بين الحضارة والهمجية إذا كان الرجل فقيراً جداً احتقره في مروءتهم من هم أحسن منه حالاً من الناس حتى يكاد يسقط وينزل في نظرهم عن مرتبة الانسان. واذا كان غنياً لم يكن آمناً على حياته بسبب الحسد والرغبة فيما عنده — وهذا صحيح في البيئات التي يثري فيها المرء باستخدام قوته أو احتياله أو سلاحه ويفاخر باستخدامها جميعاً . وفي هذه البيئات يحتقر الناس من يجبن عن استخدام القوة أو السلاح أو الحيلة لدفع عادية الفقر الشديد وكما يحتقرون مثل هذا الفقير فانهم يجلون المجرم العابث بالامن حتى انهم قد يلبسوه صفات البطولة والعظمة وكثيراً ما تتم هذه الصفات حيث لا يجد المرء فرصة لنيل ما يستحق بسبب المحاباة والظلم والرشوة واحتيال الحكام لتسخير أداة الحكم في أغراضهم . وقد تكون هذه الصفات بسبب آثار حكم مضى وعهد سابق وأحوال في الحكم انقضت . وقد يكون العهد السابق والحكم الغابر قد خلف في نفوس الحكام والمحكومين خصالاً مستعصية باقية .

٣ — في بعض الأحايين يمدحنا مادح بسبب أعمال أو صفات طالما ذممناها في غيرنا فنسرع الى مدح تلك الأعمال والصفات — ويحجم المرء عن المآثم والنقائص اذا خاف لوم الناس أو بغضهم أو ذمهم أو عقابهم فاذا وجدهم يمدحون تلك المآثم والنقائص ويحبذونها ويزينونها أقدم عليها غير هياب ولا وجل . وهذا لا يمنعه من مؤاخذة غيره عن ما يعمل مثله اذا وجد لنفسه فائدة ولكنه يحاول أن يفرق بين عمله وعمل غيره وان لم يكن بينهما فرق

٤ — أكثر ذوي الفضل كانوا على بساطة في السلوك والعادات . ولكن من الغريب أن الناس تعد تلك البساطة دليلاً على قلة الفضل والعقل — وذلك اما لأن تلك البساطة تشابه في أذهانهم صفات الغفلة أو البلاهة وإما لأن البساطة تنافي التكلف الذي يغري بالظهور بالمظهر الذي يرضي رغباتهم ونزواتهم . وهذا التكلف هو منبعه مكر الابانة الذي يعدونه

أعظم مظاهر العقل ومزاياه لأنه يحوطهم بما يشاءون وكل هذا التكلف قد يخالف بساطة العظماء ومن أجل ذلك يعدها الناس نقصاً في الفضل والعقل .

٥ — مهما بلغ المرء من اشمئزازه من الدنيا وأعراضها بعد اختبارها ذاتياً إن أرمضت له وابتسمت ودعته اليها انساها وصالحها وابتسم لها بعد العبوس ورجع الى الالتفات بها ولو بعض الرجوع . وكذلك حاله مع من يتودد اليه من احتقرهم وساء رأيه فيهم فإذا لم يعد لعشرتهم اذا توددوا له قل سوء رأيه فيهم .

٦ — يحسب المرء أنه إذا خاب حزن أصدقاؤه ومعاشروه لخيبته واذا نجح فرحوا بنجاحه . ولو كُشف له عن مكنون سرهم لوجد فيه عكس ذلك في كثير من الأحايين — أو على الأقل يجد بجانب الأسف لخيبته شعوراً بالمسرة يخالطه مخالطة النقيض للنقيض وبجانب السرور لنجاحه شعوراً بالامتعاض والاستياء يناقضه ولكنه يخالطه وقد يجد ذلك حتى عند أقاربه وعند من ينتفع بنجاحه ويخسر بخيبته من الناس . لأن النفس لا تستطيع أن تتغلب على أثرتها كل التغلب وان تغلبت على بعضها .

٧ — أكثر الناس لا يخجلون من الأذى الذي يصنعونه للناس وإنما يخجلون من الأذى الذي يصنعه بهم غيرهم لأنه ينقص من أقدارهم لدى أنفسهم — أما إذا خشي المرء ان يخجل إذا ظلم غيره فإنه يعمل على ان يشرك الناس في ظلم المظلوم فإذا نجح في حمل الناس على مشاركته في ظلم المظلوم أمن من الخجل ومن تأنيب الضمير . ولقد كان الطغاة قديماً يتخذون من الناس رجلاً يكون اداة لتنفيذ ظلمهم حتى إذا لم يعد صالحاً لتنفيذه قضوا عليه واتخذوا غيره وبذلك ينالون أغراضهم كما ينالون حمد الناس إذا بطشوا بأداة ظلمهم .

٨ — الدنيا كالمرأة الجميلة المعشوقة لا ينال التقي لديها حظوة بالخجل والحياء فمن أراد ان يلحظوه وجب عليه أن يودع الحياء وان يكون لسانه بوقاً يدعو الناس الى الاعتراف بمزاياه الحقيقية أو الموهومة أو ان يجد أناساً لهم رغبة وفائدة في ان يكونوا أبواقاً له . أما اذا انتظر حتى يسرع الناس للبحث عن فضله وإعلانه فإنه لن يرى إلا من يسرع الى إخفائه .

٩ — لو حوسب كل إنسان على ما يقوله في غيبة أصدقائه لما رضي ان يقولوا فيه مثل ما قال فيهم — فإنه مهما كان مخلصاً لهم لا يسلم لسانه من سقطات في غيبتهم لا ترضيهم . وهو بالرغم من ذلك يدهش اذا بلغه ان أحدهم قال فيه مثل ما قال فيهم ويعد نفسه مظلوماً لا يجد جزاء إخلاصه وملاءمته لهم في غيبتهم .

١٠ — قلما يكون البعيد عن الناس القليل الاختلاط بهم حسن الظن بهم إلا اذا كانت العزلة بعد المخالطة . فليس أسوأ رأي في الناس مما يرسخ في النفس بقراءة الكتب التي تعلم

سوء الظن بالناس وانما يكون هذا المقتبس من الكتب كلاماً غير راسخ في النفس لأن العشرة هي التي تفطن الى سوء الرأي في الناس بسبب مرارة اختبارهم — وليس أحد الناس سوء ظن بهم المعجب بنفسه وليس من المحتم اجتماع الاعجاب بالنفس وسوء الظن بالناس فاننا قد نرى الرجل الشديد الاعجاب بنفسه عظيم الثقة بها وثقته بنفسه قد تدعوه الى حسن الظن والرأي، فيحسب ان الناس يعجبون بنفسه كما يعجب فينشرح صدره للعطف عليهم ولا سيما ان ذلك العطف يتفق وما في نفسه من العظمة المزعومة التي تقضي أن يشمل الناس بركات خيرها . واذا ظهر منه غير ذلك من سوء الرأي في الناس كان سحابة صيف عن قليل تنقشع .

من نظرات شوبنهور

١ — مما يجعل الانسان غير مبالٍ لتعاسة التعساء ولا آبه لها أنه يعتقد في نفسه العجز عن تحمل متاعب أكثر من متاعبه . ومن أجل ذلك اذا حسن حال إنسان بعد ضيق وبؤس فقد يعطف على أهل البؤس إمّا سروراً بنجاته من مثل حالهم وإما خشية أن يعاوده البؤس فهو يرحم نفسه اذ يرحمهم . وأما الذين لم يصادفوا في حياتهم بؤساً فانهم كثيراً ما ينصرفون عن العطف على أهل البؤس لأنهم يرون أنفسهم بمأمن من غوائله فلا يستطيعون أن يضعوا أنفسهم مكانهم — على أنهم لو حاولوا وضع أنفسهم مكان أهل البؤس لنفروا من هذه المحاولة وتأذوا وامتعضوا . ومن الجائز أن النعيم يضعفهم فيدون أن يتجاهلوا ما يؤذي نعيمهم ويصرهم من مناظر البؤس . على أن الكفاح للخروج من الضيق ، اذا نجح، قد يعوّد بعض الناس برودة الطبع والقسوة إذ يعد كل معاملة للناس قتالاً كالذي تعوّده في الكفاح ويرى أن الحياة معركة لا يظفر بالنصر فيها من يترك القتال كي يضمد جروح الجرحى . فمذهب هذا الرأي قاتلة التعاون .

٢ — قد يكون سبب سعادة الانسان ونجاحه في الحياة أن له ابتسامة سارة يبتهج الرائي عند رؤيتها وينشرح صدره فيعطف على صاحبها ويصنع له كل خير يريده وقد يحسب الرائي بهجة هذه الابتسامة وحلاوتها من طيبة قلب صاحبها واستقامته وسلامة صدره من الشر والأذى والاحقاد وهي قد تكون كذلك وقد لا تكون — إذ ربما كانت من تكوين الوجه وشكل خلقته من غير حقيقة خلقية خلف ذلك التكوين أو قد تكون من لباقة المخادع الماهر في إخفاء مرزئته — فينبغي لمن يغتر كل الاغترار بمثل هذه الابتسامة أن يتذكر قول شكسبير في قصة هاملت « قد يكثر المرء من الابتسام وهو وغد » .. ولكن من ذا الذي لا يغبط صاحب هذه الابتسامة التي هي مفتاح القلوب والظهور .

٣ — بعض ذوي الكفاية العظيمة في أمور الحياة أو العبقرية لا يحاولون اخفاء عيوبهم ولا سيما اذا كانت من الاخطاء أو العيوب التي يعدها الناس بالحق أو الباطل من لوازم تلك الكفاية العظيمة ودليل عليها . وهم لا يحاولون إخفاء عيوبهم أو أخطائهم لانهم يرون أنهم قد أدّوا عنها من كفايتهم . وبالعكس نرى بعض من عدموا الكفاية النادرة وإن كان لا بأس بهم يحاولون الظهور بمظهر العصمة ويتألمون ويتملكهم الغيظ اذا ظهرت أخطاؤهم ويحاولون أن يقنعوا الناس أنهم معصومون . وما ذلك إلاّ لانهم ليس لهم فضل عظيم نادر من أجله تغتفر سيئاتهم — بالرغم من ميل الناس إلى التشفي من أهل الفضل بنسبة النقص إليهم — فرية من لا فضل له لا تتحقق لدى الناس إلاّ إذا خلا من الأخطاء. وقد تبالغ كل طائفة في خطتها فالطائفة الأولى في رفع الكلفة والطائفة الثانية في استخدام كل وسيلة مهما كانت ظالمة لاثبات خلوها من العيوب ونقلها الى غيرها . وهناك طائفة ثالثة هي من أهل العجز يحاكي آحادها ما يحسبونه من عيوب ذوي الكفاية كي يسلكوا في زمرتهم ويعدّوا منهم .

٤ — من الجائز أن يحزن إنسان لموت خصم او منافس أو عدوّ حزناً كثيراً اذا افتقد ذلك الانسان خصمه الميت عند النجاح والظفر فيود لو كان حيّاً كي يرى كيف ظفر في الحياة بعده بالنجاح والسعادة ولم يظفر الميت . وهذا نوع من الحقد والتشفي من الميت يكون عند ذوي النفوس الدنيئة .

٥ — رغبة الانسان في أن يظل شهيراً بعد موته انما هي مظهر من مظاهر حب هذه الحياة الدنيا .

٦ — اذا غالى الناس في اعتناق رأي أو مبدأ أو مذهب فلا بدّ أن يعودوا في المغالاة الى ضده حتى تستقر حياتهم بين الطرفين وانما مثلهم في الذبذبة مثل رقاص الساعة .

٧ — كل فضيلة من الفضائل لها رذيلة من نوعها وكل رذيلة لها فضيلة من نوعها . ومن أجل ذلك كثيراً ما نخطىء في الحكم على الناس فقد ننسب الى انسان الفضيلة التي هي من نوع رذيلته أو الرذيلة التي هي من نوع فضيلته فيظن الحازم المتأني جباناً والمقتصد المدبر بخيلاً والمبذر المتلاف سخيّاً كريماً وسيء الادب صريحاً مستقيماً والأحمق متحلياً بفضيلة الثقة بالنفس الخ .

٨ — كثير ممن يجهلون عظم منزلة الانسان في العالم بسبب فضائله وعقله يشتطون في القسوة في الحكم اذا حكموا وفي معاملة آحاد الناس إذ يطالبونهم بما يناسب عظم منزلة الانسان التي أساسها الفضائل والعقل . ولكن الفضائل كثيراً ما تخذل الانسان ولا تواتيه والعقل كثيراً

ما يسخف أو يخطئ ، أو يسهو فمعظم منزلة الانسان في الكون بسبب ما هو معرض له في حياته من آلام ومصائب وعذاب وجهازه العصبي أرق من جهاز غيره من الحيوانات فهو مرهف الحس وله خيال يصور له آلامه وعقل يشغل بها. فاذا عاشرت انساناً لا تنظر الى ما في إرادته من شر وما في عقله من قصور وما في آرائه من سخف أو هوى فانك ان فعلت ذلك كرهته أو احتقرته بل انظر الى آلامه من واقع ومنظور والى حاجاته وتعبه في الحصول عليها والى بواعث القلق في حياته فان من يتحمل كل ذلك حقيق بالعطف والمحبة والاعظام .

٩ — قصور العقل وسوء الخلق أمران مختلفان قد يجتمعان وقد لا يجتمعان . ولكن قصور العقل قد يساعد على افشاء رذائل صاحبه فيحسب أنها ناشئة منه . فالغباء كثيراً ما يظهر دناءة صاحبه وشره بينما العاقل الحازم قد يدرك وسائل اخفاء شره ويستطيعها فيحسب انه خال من الرذائل وان العقل وحسن الخلق متلازمان أبداً . كذلك سوء الطبع قد يستهوي صاحبه فيمنعه من ادراك الحقائق التي لولا سوء خلقه وطبعه لاتضحت لعقله وقد تتضح في حالات دون حالات .

١٠ — كل حيوان لا يقسو الا ليأكل أو للدفاع عن نفسه . أما الانسان فانه قد يقسو من غير داع الا التلذذ بالقسوة فهو كما سماه العلامة جوبينو صاحب كتاب الأجناس البشرية « الحيوان الذي بذ كل الحيوانات في خبث طبعه وشره » واذا وجد حيوان يقتل أكثر مما يأكل فان ذلك الا كما يقول الفرنسيون في أمثالهم عينه أكبر من معدته — فالانسان قد يقسو من غير فائدة لنفسه إلا التلذذ بالقسوة . وقد يبلغ هذا التلذذ مرتبة الجنون وكثيراً ما نسمع عن حوادث تعذيب ترتكبه حتى بعض الأسر المحترمة في عهد الحضارة والثقافة . وكأن شهوة القسوة تفرز في جسم الانسان مخدرا زماناً يتجمع كسم الأفعوان وينتهز أقل سبب وأصغر فرصة كي يؤذي به بعض الناس أو الحيوانات . ولعل التلذذ بقسوة الالفاظ المؤلمة والنظرات التي تنم عن القسوة وبالدسائس والمكائد كلها أنواع من التلذذ بالقسوة هي عرض سيكولوجي عما كان يصنعه الانسان في أيام الهمجية بأعدائه وأسراه وعبيده تلذذاً بالقسوة لأجل القسوة سراً وعلانية من غير رادع . ومن العجيب ان بعض المرضى بمرض نفسي أو عقلي يلتذون ألم قسوة غيرهم بهم . وما دام الانسان يقتتل على الحياة وهو رقيق الجهاز العصبي وذو خيال وعقل فلا سبيل الى محو طبع التلذذ بالقسوة كل المحو — إلا إذا أسعف طب الغدد الحديث — وربما كان تلذذ الانسان بالقسوة لذة فرحه بأن الألم نال غيره ولم ينله . فهي نوع من الجبن أو وسيلة للنجاة من الخوف على النفس .

ع . ش